الريحاني وفضل المشرق

(اقام اقامرة الكاتب البليغ امين افندي الريحاني نزيل اميركا فاقام له ادباء مصر وسرانها حفلات تكريم كثيرة كما سيأتي في باب الاخبار العلمية ومنها حفلة اقامها حضرة الوجيه الياس بك زياده صاحب المحروسة في منزله ولما انتظم عقد المدعوين اليها وقفت كريمته الآنسة الكاتبة ماري (ي) واتت الخطبة التالية)

ايها السادة

من جميل العادات ان القوم اذا نزل عليهم عزيز جاءوا باصغرهم سنا وشأناً يهدي الى الضيف الازهار ويلقي بين يديه كلمات الترحيب . كأنهم بذلك يقولون للزائر اننا نقدّر قدومك تقديراً يعجز دون وصفه الكبير فينا . وانما نقدم لك الطفل اعترافاً بهذا العجز ودلالة على ان الكبير عندنا والصغير سواء في الشعور بالاغتباط والامتنان

وعلى هذه العادة جرى ابواي فقدماني انا اصغر اعضاء البيت لاشكر لكم تشريفنا بحضوركم ولارحّب بكم بالكلمة العربية البسيطة التي لا يزيدها الاستعمال الا عذوبة وجمالاً : « اهلاً وسهلاً » . لقد جئتم اهلاً ونوارجوكم ان تتناسوا طول السلّم ليتسنى لي ان اضيف : ووطئتم سهلاً »

ولكن لا بأس بالصعوبة احياناً واكاد اقول ان قيمة الاعمال تقدر بالتغلب على المصاعب. ولا بأس بشيء من التعب للاحتفاء بمن هو بالاحتفاء حقيق . ليس غرضي هنا التنويه بامين افندي والاشادة بذكره وهو اسمى ما فتىء يقوم به رجالنا الافاضل من مصريين وسوريين منذ ان حل مترجم المعري بوادي النيل . غير اني ما ذكرت الريحاني الا ذكرت انهُ كان جليسي يوم كنت اتلقن اللغة العربية على نفسي، اتلقنها على حبي لهذه اللغة التي اباهي بأني لم ادرسها على استاذ. كان جليسي في « الريحانيات » — ولقد كانت « الريحانيات » من الكتب الخمسة او الستة التي عرّفتني باتجاه الفكر العربي الحديث في صيغتي الشعر والنثر

استهل الجزء الاول من « الريحانيات » بمقال وصف فيه مسقط رأسه وادي الفريكة — ذلك الوادي الذي احبهُ وتغنى بمحاسنه راسماً صفحة الصخور والاشجار والمرتفعات والمنحدرات والالوان والاصوات ، مصوراً ما احاط به من الجبال

المتعانقة عناقاً ابدياً تحت رعاية الافق المخيم عليها ، مستحضراً منهُ المياه المتدفقة والرياح العاصفة والشمس المشرقة والكوكب المتلألىء . بالجمال روح الريحاني في مقال وادي الفريكة !

قال رسكن ان جمال المشاهد الطبيعية كثيراً ما يقوم بما مر عليها او وقع فيها من حوادث تاريخية او فردية . كذلك تشبعت عندي جميع صفحات الكتاب بحياة من وادي الفريكة . وصرت كلما قرأت فصلاً خلتهُ مكتوباً في ذلك الكهف ، او تحت تلك الشجرة ، او عند ذلك الغدير . واري الريحاني سائراً في معاطف الوادي تحت سيول الامطار هائماً بالطبيعة في انتعالها وغضبها ، طرباً لتساقط الاوراق ، متسائلاً عمن فتح تلك الطريق الصغيرة بين الاشواك والادغال ومطلقاً عليها اسم « بطل الوادي » . ثم يقف متفهماً معنى السكينة بعد العاصفة ، متنشقاً بنسمة واحدة خليط انفاس الوادي . صرت احسب وادي الفريكة هيكلاً يأوي اليهِ الريحاني ليتأمل ويبحث ويفكر — والتفكير صلاة الفيلسوف على رأيهِ — حتى اذا ما كشر المجتمع عن انيابهِ ليؤلمهُ وينسيهُ لحظة الجمال والحقيقة والصلاح ، حتى اذا ما اوجعتهُ الصغائر وامعنتهُ الجراح سأل الوادي تعزية ودوزن قيثارتهُ منادياً ربة ذلك الهيكل الطبيعي قائلاً : «داويني ربة الوادي داويني ! اغسلي جراحي وضمدي كلومي ! اعيدي اليّ ما سلبتني الآلام من مجد الحياة الشعرية وازيلي عن اجفاني كآبة الاجيال ! داويني ربة الوادي داويني ! ربة الانشاد اصلحيني ! »

كان ذلك في اواخر صيف ١٩١١ وكنا معطافين في لبنان فأفضيت الى اديب هناك بأثر الريحانيات في نفسي وكيف ان ذلك الوادي غدا لي شيئاً حيا يتحرك ويناجي ويندب ويهلل ويزمجر ويهتم ويحيي ويودع . فقال الاديب : اذن لماذا لا تزورين الوادي وهو على مقربة من هذا المكان ، وامين ريحاني وصل حديثاً من اميركا ويقطن منزلهُ المشرف على الوادي وقد دعاهُ « بالصومعة » . وكان ذلك الاديب من اصدقاء شاعرنا فكتب اليهِ . وكان الجواب ان بعد ظهر الغد زارنا امين الصومعة مع شقيقتيهِ الفاضلتين وبعض انسبائهِ واصحابهِ . فرأيت بالجسم لمرة الاولى ريحاني الوادي هذا الذي تبصرون

ومضيت الى الفريكة بعد يومين او ثلاثة مع والدي وبعض الادباء فرأيناهناك المكتب الذي يكتب عليهِ والنافذة المطلة على البحر البعيد وتدخيمت فوقهُ روعة

الغروب ، ورأينا والدتهُ الجليلة . تعلمون ايها السادة ان امين افندي واسع حر في مسئلة الدين ، اي انهُ يوحد جميع الاديان في اخوة رفيعة سامية . اما والدتهُ فسائحة مصلية زاهدة متعبدة تكثر من قرع الصدر وتكثر التردد على الكنائس ولعلها تبتهل الى الله دواماً ان يرد ولدها الضال الى حظيرة التوبة

وزرت جانباً من الوادي متلمساً خطوط الصخور والاشجار ، متلمساً هيمنة النسائم ومدير النهر المهرول الى حضن البحر . زرت جانباً من الوادي وعندئذ فهمت عظمة التفوق الفردي الذي ينيل الجماد حياة ويجعل المكان المجهول محجة للزائرين. عندئذٍ فهمت عظمة التفوق الفردي الذي قد يثير من الكره والتطاول والعداء بقدر ما يثير من الاعجاب والصداقة والاخلاص ولكنهُ يهز الافراد والجماعات هزاً ويحدث فيهم يقظة محتومة . عندئذٍ فهمت عظمة التفوق الفردي المتجلي وحدهُ فريداً باساليب سعادتهِ وشقائهِ ، فوق فروق المراتب وروابط الحسب فتنحني امامهُ جباه المكابرين والمسالمين

ومرت عشرة اعوام والريحاني يشتغل في الغرب بعيداً عن بلادهِ . وكلما نشر كتاباً او مقالاً ذكر اصدقاءهُ في الشرق فبعث اليهم بنفثاتهِ . وكنت كلما قرأت منها شيئاً عاودتني تلك الذكرى الاولى التي بسطتها الآن امامكم

فيا ريحاني الوادي ، ان نحن احتفينا بقدومك مرحبين كل منا باسلوبهِ الخاص فانما نحتفي بنفسنا الشرقية وبما يتحرك فيها من وراثة سحيقة ويهيجها من ذكريات العز الماضي وآمال التقدم المنشود . بالامس قطعت فينيقيا البراري وخاضت البحار مشيدة على الشواطىء القصية المدائن والمواسم . بالامس كانت مصر معلمة العالم تلقي عليهِ دروس الشريعة والادارة والهندسة والفلسفة الروحانية الخالدة . بالامس فتح سيف الاسلام القارات الثلاث ناشراً فيها حضارة اوجدها القرآن . وكان الشرق اذ ذهب يرفع الجبهة ويناجي الشعوب قائلاً : ها أنذا جئتكم بمواهبي استخدمها بسُبُل لمصلحة بني جنسي ومصلحة بني الانسان

ومما نفاخر بهِ اليوم ويبعث الامل فينا ان منا افراداً يقفون في بلاد المشرق والمغرب عالي الجبهة لا يكذبون وراثتهم الشرقية ويتقلبون على اناثية الجماهير الحيوية قائلين ما قالتهُ بالامس فينيقيا ومصر والعرب : ها أنذا جئتكم بمواهبي استخدمها بسبل لمصلحة بني قومي ومصلحة بني الانسان